عمر راسم
وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية[1]

الدكتور عميراوي احميده
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله حمد الشاكرين الحائرين.. وبعد؛

لا نعتقد إننا على خطإ إن قلنا: ليست شخصية عمر راسم (1883-1959) جديرة بالدراسة فقط، وإنما هي في حاجة إلى الاحتفاء بها، عن جدارة واستحقاق، كشخصية وطنية متميزة، نظرا لما لها من أبعاد سياسية وطنية، وفكرية إبداعية، وإصلاحية اجتماعية، وإعلامية دعائية، وفنية راقية؛ فهي لم تنل حظها من البحث العلمي؛ ولم تحظ بالاحتفاء كبقية الشخصيات الأخرى. ولهذا فكل من يهتم بها وبأمثالها يكون قد اهتم بقيمة حضارية، وتحمل المسؤولية، وفعل خيرا مباركا، يؤجر عليه بإذن الله. وعلى هذا الأساس سيكون حديثنا مثمنا في النقاط الآتية:

1- المفهوم؛

2- ترجمة حياة عمر راسم؛

3- موجز عن وضع الجزائر إبان حياة عمر راسم؛

4- خطاب عمر راسم في الحركة الوطنية الجزائرية.

---

1 - أعدت هذه الورقة بمناسبة الملتقى الوطني حول عمر راسم يومي 14، 15 فيفري 2009، بقصر الثقافة مفدي زكريا، في الجزائر العاصمة. وننوي إن شاء الله نشرها في كتاب بعنوان " مواقف نضالية وإصلاحية"

أولا- المفهوم:

عملا بما يمكن قوله: إن أردت أن تتحدث معنا حدد مفاهيمك، لهذا نرى من المفيد في تناول هذا الموضوع توضيح مفهومين، هما: مفهوم الخطاب، ومفهوم الحركة الوطنية.

أ-1- مفهوم الخطاب:

في بداية الأمر علينا أن ننبه غيرنا إلى أن الفكرة الرئيسة في هذا العرض ليست في الحديث عن الحركة الوطنية، أو عن دور عمر راسم في هذه الحركة، وإنما هي إبراز خطابها، وموقع نشاط عمر راسم في هذا الخطاب؛ لأنه مثلما سيتبين أن للحركة الوطنية الجزائرية أكثر من خطاب، والسؤال المطروح هو، في أي خطاب يمكن أن نصنف نضال واتجاه عمر راسم؟

وفي البداية، أيضا، يفرض علينا الأمرُ تحديدَ مفهوم الخطاب؛ إذ إن هذا الخطاب بحسب قناعتنا يكون في التفكير العقلي، ضمن إطار منهجي إيديولوجي، ويتحدد بملفوظات خطابية تنم عن اتجاهات فكرية، في أشكال خطابية كلامية، وفي ممارسات تنظيرية، وكلها مشدودة إلى مرجعية ثقافية، ومطبقة بمنهجية علمية، وساعية إلى تحقيق أهداف مستقبلية. وبهذا يكون مفهوم الخطاب الذي نعنيه في الحركة الوطنية الجزائرية؛ هو الممارسة والإبداع، (المتحرك)، أي بأكثر من مضمون، الذي قد يكون فكريا، أو سياسيا، أو إصلاحيا، أو شيئا آخر، والذي يختلف عن مفهوم الخطاب في اللسانيات وفي اللغة؛ تراثا واجترارا، (الثابت)، ذي المضمون المعرفي الواحد.

ولا يمكن أن يكون الخطاب معزولا عن الفعل الفكري في المسار التاريخي، بل يكون ملتصقا بالموقف الإيديولوجي، ومن ثمة تكون من مهام هذا الخطاب تكريس الرهان السياسي المتفاعل مع محيطه الاجتماعي، لهذا تتجلى مظاهره في التنظير لملمور الواقع، أو في الضغط الرافض للهيمنة، وللمصادرة.

ويتعدد الخطاب من مستوى إلى آخر، فقد يكون خطاب ما مدركا للواقع الذي يعيش فيه من دون أن يكون قادرا على تغيير ذلك الواقع (إسكانه)، بينما يكون خطاب آخر مدركا للواقع ومنظرا له، في حين يكون خطاب آخر مدركا ومنظرا وقادرا على التغيير، أي أنه قادر على حل مشكلات الواقع، ويحدث أن يكون خطاب آخر ليس مدركا ومنظرا وقادرا على التغيير بحل مشكلات الواقع فقط، بل يكون ذا مشروع ضامن الاستمرار أيضا كفعل حضاري.

والسؤال الذي يمكن طرحه هو، أين نصنف خطاب عمر راسم من حيث هذا الإدراك، والتنظير، والقدرة على التغيير، والاستمرار؟

واعتمادا على هذا، وانطلاقا من المسار التاريخي للحركة الوطنية الجزائرية، وتقويما لمراحلها، ومقارنتها بما كان سائدا من خطاب في العالم العربي- الإسلامي يمكن القول إن أكثر من خطاب عاشته البلاد العربية-الإسلامية، بعامة، والجزائر، بخاصة، ويمكن إجماله في خطاب كل من العلمانية التركية، واللائكية الأوروبية، والقومية العرقية العربية، والقومية الدينية الإسلامية والمسيحية، والاشتراكية الشيوعية، والصهيونية اليهودية، والطرقية الصوفية، والحركة الوطنية السياسية العربية، بما فيها الحركة الوطنية الجزائرية. ويمكن إضافة خطاب آخر، وإن كان محدود التأثير في البلاد العربية؛ وهو خطاب النزعة العرقية، مثل النزعة البربرية، خاصة في الجزائر.

من هذا يتبين أن التداخل حَدثَ بين القومية الطورانية إقليميا علمانيةً، واللائكية الأوروبية استيطانا هيمنةً، والقومية العربية جغرافيا جنسا ولغة، والقومية الإسلامية سياسيا دينا وخلافةً، والإيديولوجية اليسارية توسعا أمميةً، والكاثوليكية تبشيرا نصرانيةً، والطرقية روحا صوفيةً. والوطنية إقليميا نهضةً، والنزعة العرقية اندماجا

عصبيةً[1]، والسؤال المفروض طرحه في هذا الموضوع هو بأي خطاب كان عمر راسم ينشط؟ أي، هل كان عمر راسم مصلحا بمرجعية دينية إسلامية، أو اشتراكيا بإديولوجية أممية، أو عقلانيا بفكر لائكي ليبرالي، أو ثائرا بنزعة عرقية؟

1-2- مفهوم الحركة الوطنية:

ليس من السهولة بمكان وضع تعريف دقيق للحركة الوطنية، وهذا بفعل تعدد الاتجاهات الفكرية، واختلاف الدارسين المهتمين بها. ومهما يكن فهي تلتصق بأية حركة يقوم بها شعب ما، أو جماعة ضاغطة، أو أفراد، بشكل هاو، أو محترف، وباستخدام وسائل متعددة، مثل الأندية والأحزاب، أو الصحافة والإعلام، أو الكتابة والتأليف، أو الرسم والزخرفة؛ وكل هذا بهدف الحفاظ على مقومات هذا الشعب، والسعي إلى تحسين وضعه السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي؛ بالحصول على حقوقه السياسية، كالتمثيل النيابي، وحرية الرأي، وممارسة أحواله الشخصية، أي، رفض الهيمنة الأجنبية. وليس شرطا أن يكون رجال الحركة الوطنية من داخل البلاد؛ بل قد يكونون أيضا من خارج البلاد. وفي تقديرنا، ووفقا لهذا الطرح يمكن تأريخ بداية الحركة الوطنية ببداية الاحتلال الأوروبي لأرض الجزائر[2].

ثانيا- ترجمة حياة عمر راسم:

عمر راسم هو بن علي بن سعيد بن محمّد البجائي الصنهاجي، وابن باية بورصاص، ولد عام 1883 في مدينة الجزائر[3]، وهي السنة التي توفي فيها الأمير عبد القادر، وتوفي عام 1959، وهذه السنة هي التي توفي فيها زعماء جزائريون كبار[1].

---

1 - لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية**، دار الهدى- الجزائر 2007، ص- ص. 24-25.

2 - **الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية**، ص-ص. 55-68

3 - جاء في موقع http://www. Odabasham. net وفي بعض المراجع الأخرى أن ميلاده كان عام 1884

كانت بداية تعليمه في المدرسة القرآنية على عادة أغلب أبناء الأسر الجزائرية، حيث حفظ القرآن الكريم، ثم مبادئ النحو، واللغة الفرنسية، وفنّ الرسم، وجمال الخط، ورونق الزخرفة؛ وخاصة رسم المنمنمات[2]، على يد مدرسين أمثال محمد بن مصطفى الخوجة[3]، والمقربين إليه من أفراد أسرته، إذ كان والده علي الذي توفي عام 1917 من الرسامين، مثلما كان أخوه محمد راسم كذلك، الذي تجول في بلدان كثيرة منها فرنسا، وإنجليترا، وإسبانيا، ونهل من هذه البلدان معالم فنون الرسم الزخرفي. ولا يعني هذا أن مثل هذا الفن الزخرفي كان حكرا على هذه الأسرة، بل كان كثير من الجزائريين مولعين بهذا الفن أمثال علي بن الحاج موسى، وعمر بن سماية[4].

وأسس عمر راسم مدرسة للفن أسماها "مدرسة الفنون الزّخرفيّة والمنمنمات الإسلامية". مثلما يقال أنه ساهم في تأسيس فرقة مسرحية. وعمل في مطبعة عام 1901. ويفهم من اختياره عنوان مدرسة الفنون الزّخرفيّة، ومن رسوماته الخالدة أن عمر راسم كان يسعى بعمله هذا إلى الحفاظ على التراث الإسلامي، وتطويره، بل كان بموقفه هذا يتصدى لأهداف المدارس الأوروبية الفنية التي حاولت طمس الثقافة الفنية العربية الإسلامية في الجزائر. لأن التاريخ يؤكد لنا أن الاستيطان الأوروبي في الجزائر صاحبه جيش من الرسامين المحترفين، والموظفين الرسميين، والهواة المغامرين

---

1 - أمثال: كل من البطل عميروش وسي الحواس، وعيسات إيدير، والجغلالي الطيب، وميرة عبد الرحمن؛ رحمة الله عليهم جميعا.

2- "المنمنمات، كانت تسمّى قديماً التزاويق، وتقوم على تزيين الكتب والمخطوطات بالرسوم الدقيقة. وقد طوّر الفنانُ المسلمُ هذا الفنَّ الذى ورث أصوله عن الحضارات الهندية والفارسية، وأول كتاب ظهرت فيه المنمنمات كان كتاب كليلة ودمنة، وهو فى أصله كتابٌ هندى، وتطوّر هذا الفن، وبرع فيه كثير من الفنانين المسلمين". ينظر موقع يوسف زيدان: http://www. ziedan. com/monamnamat. asp

3 - لمعرفة شيء على هذا المدرس الخطيب يراجع: سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص. 83

4 - لمزيد من المعلومات يراجع: سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 5، ص. 397.

الذين تركوا رسومات هامة بعد أن تفننوا فيها، وهي محفوظة في أهم الدور الأرشيفية، وبخاصة في قصر فرساي. وتمثل تلك الصور أكثر من حقيقة تتعلق بالواقع آنذاك، مثلما تتعلق بنفسية راسميها. وكان من أشهر الرسامين: "روجي فيولي" (Roget Viollet) و"روش" (Roches) و"جيرودان" (Giraudon) و"هوراس فارني" (Horace Vernet) و"فريديريك غوبيل" (Goupil Frederic).

وتعد هذه الرسومات وثائق نادرة، تصنف في ما يعرف بالإيكونوغراف، وهو علم هام قليل العناية به في البلاد العربية، وبخاصة في الجزائر.

ومن جانب آخر تطور الرسم باكتشاف آلة التصوير بالعدسة بدءا بسنة 1827 على يدي الفرنسي "نيسفور نياس" (Nicéphore nièce) ثم انتشرت الصورة بداية من عام 1835 ثم اتسعت بداية من عام 1851[1].

وكان الجزائريون بداية الاحتلال يكتبون فقط، ولم يكونوا يرسمون. على خلاف الأوروبيين الذين تركوا لنا مادة مصدرية عالية القيمة؛ من رسومات وصور التي أصبحت من أهم مصادر تاريخ الجزائر. وبخاصة اللوحات التي جسدوا من خلالها ملامح أهم الأحداث، وأهم المناظر الطبيعية خلال القرون الماضية، وأهم المظاهر الاجتماعية الجزائرية.

أمام هذا كانت لوحات وزخارف عمر راسم مواجهةً ندية، للرسومات الأجنبية، وسلاحا حافظ به على المقومات الجزائرية، وبهذا يعد عمر راسم من المناضلين الجزائريين المتميزين والمتفردين في الحركة الوطنية الجزائرية، بل يعد من الرسامين الجزائريين الذين ساهموا في إثراء الحضارة الفنية العالمية، وقد جعل ببراعة فنه للجزائر مكانة مرموقة في فضاء المنمنات، أسوة بما فعلته المدارس العتيقة المختصة في

---

1 - لمزيد من المعلومات يراجع:

"Photographie (art)", Encyclopédie Microsoft® Encarta® 99. © 1993-1998

هذا الفن، مثل المدرسة العراقية، والمصرية، والمغربية، والفارسية، والعثمانية، والهندية.

والشاهد أن عمر راسم وأفراد أسرته، وكل من جاء بعده لم يمتهنوا هذا الفن كرغبة فنية ذاتية فقط، وإنما كان في قناعتهم أيضا أن هذا الفن هو سلاح ثقافي قاوموا به سياسة الطمس الثقافي المسلّط. وهو من الذين حظيوا بمكانة محترمة عالميا، إلى درجة أن كان السباق إلى اقتناء لوحاته بالمزاد العلني، مثلما تم للوحتين الآتيتين:

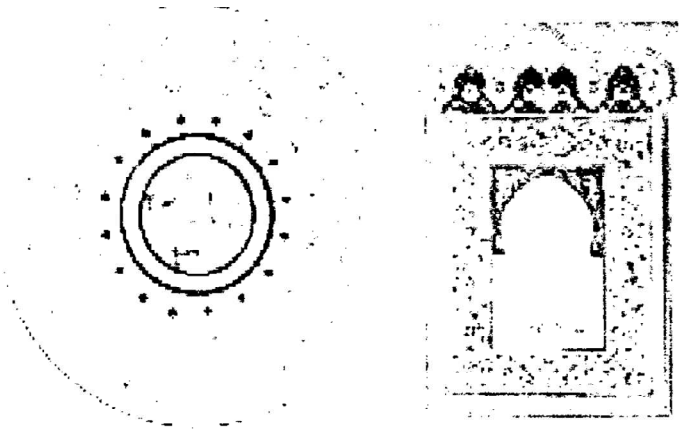

كان عمر راسم بارعاً في فنّ الرسم والزخرفة، وقد تعلم ذلك بفطرته، وعلى يد والده وعمّه. وقد تخرّج على يديه كثير من فناني الجزائر. وقد قال فيه الشاعر محمد العيد بن محمد علي خليفة حين زار معرض الخطوط لعمر راسم وتلامذته، وكتبت بخط الثلث، مع زخرفة:

الخطاط الجزائري الشهير الأستاذ عمر راسم المحترم:

فزت بالشكر فزت بالتقدير** أيها الراسم العزيز النظير

رفعت فنك الجزائر قدراً ** وأحلته في المقام الكبير

بارع الرسم بارع الخط فيها ** (عمر راسم) بدون نكير

أزهر الفن في يديك وواتى ** قلم الخط ريشة التصوير

كل من قد رأى رسومك أبدى **كل مدح وفاه بالتكبير

تترقى البلاد بالعامل الما ** ـهر صنعا والعالم النحرير

هيئ اليوم للجزائر نشئا ** ماهر الصنع سامي التفكير

يحذق الخط في الجزائر والرسـ** ـم ويعنى بكل شأن خطير

قد رقت صنعة ابن آدم فنا ** فأبانت عن دقة التدبير

إنما صنعة ابن آدم برها ** ـن مبين على الإله القدير

الجزائر يوم الأربعاء 9 محرم 1358- 1مارس1939

محمد العيد بن محمد علي خليفة

وقد كتبت آنذاك بهذا الشكل:

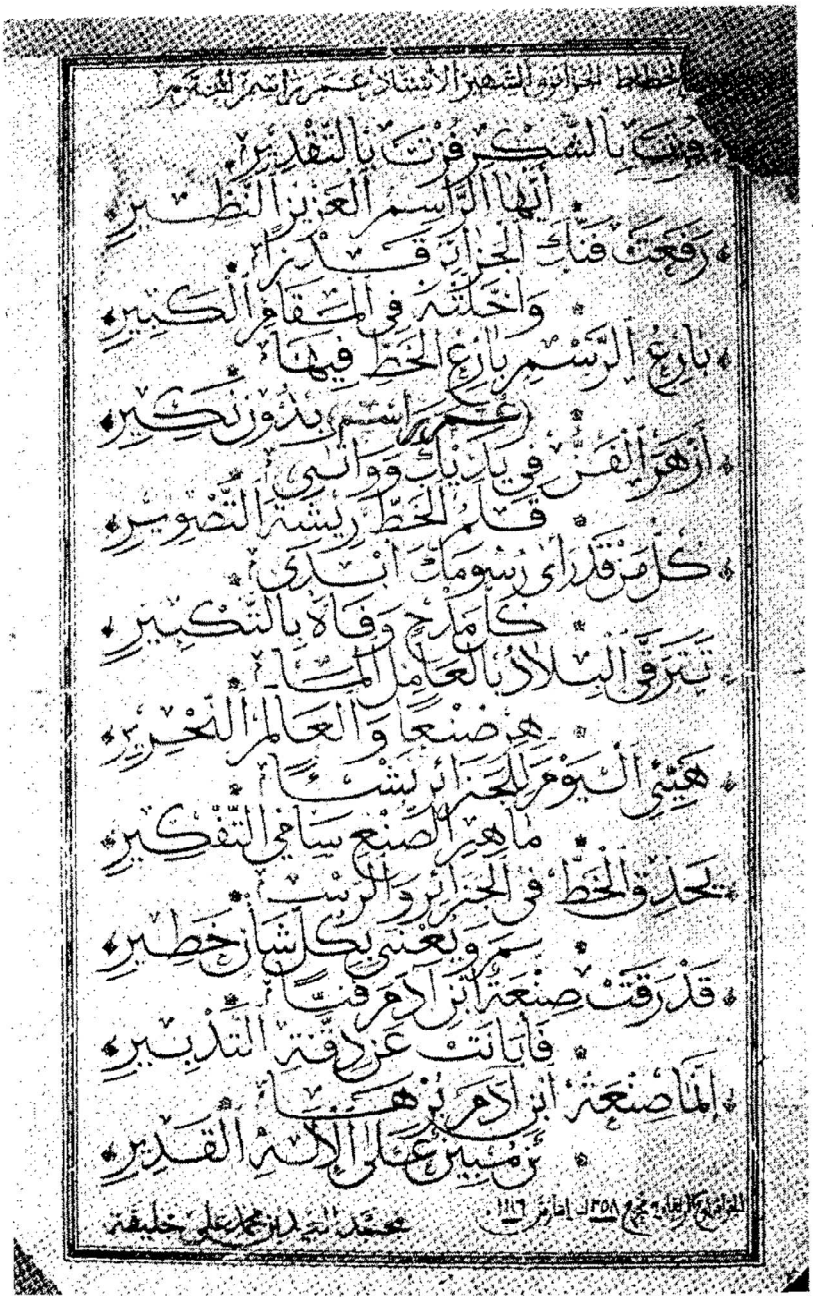

وعلى ما يبدو أن عائلة عمر راسم يتواجد أفرادها في بلدان كثيرة منها ليبيا، إذ إن أحمد راسم باكير (تـ 1963) المفكر الليبي قد قام بدور هام لصالح الثورة الجزائرية[1].

بعد هذا يمكن القول إن الحديث عن عمر راسم يعني الحديث عن مسيرة حياته الشاقة، وعن انتصار قلمه، في الوقت الذي انهزم غيره عسكريا، وعن حصاد ذاكرته وريشة فنه، فأفكاره تجاوزت أفكار معاصريه، أمثال محمد عبده، خاصة حين انتقد الحكام العرب وفي مقدمتهم ملك مصر. وحين انتقد الشعوب العربية؛ وبخاصة الشعب الجزائري "بقر الله في زرع الله". وثار على الأغنياء، كأنه في هذا يسلك من سبقه المنصفين أمثال أبي ذر الغفاري، وحذر من التطرف، وطالب بالاعتدال. وحذر عمر راسم من خطر الصهيونية منذ بداية القرن العشرين، وللتعبير عن هذا بصدق ضحى عمر راسم بحياته، مستخدما وسائل متعددة أهمها:

- فعل اللغة العربية والفرنسية، كأداة وصل بينه وبين غيره؛

- فن الرسم، والصورة، والزخرفة، لأنه كان يدرك أن هذه الوسيلة تنفذ إلى القلب والنفس والعقل ما لا تنفذ الإبرُ؛

- فن الخط العربي الجميل، المستلهم من التراث العربي الإسلامي، والمستمد من واقعه، وواقع أجداده؛

- الإبداع الفكري، بجانب الإبداع الفني، والمواقف السياسية والإصلاحية.

فكان يكتب بقلم وألم، لهذا تعدّ آثاره، ومواقفه ذاكرة وطنية جزائرية جمعية.

ثالثا- موجز عن وضع الجزائر إبان حياة عمر راسم:

إن المميز في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كثرة الأحداث، وسرعتها، وفعاليتها، منها كثرة الانتفاضات العسكرية المحلية ضد الاستيطان، مثل

---

1 - لمزيد من المعلومات يراجع: **محمد الصالح الصديق، الشعب الليبي الشقيق في جهاد الجزائر**، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2000، ص-ص. 186-188.

انتفاضة زواغة، وانتفاضة واحة العمري، وانتفاضة الأوراس، وانتفاضة الجنوب الوهراني. مثلما كانت المظاهرات مثل مظاهرة عام 1908، وعام 1909، وعام 1910، وكانت هذه الأخيرة في ميناء سكيكدة حيث رفع العلم الجزائري لأول مرة[1]. ومظاهرات عام 1912 ضد التجنيد الإجباري، وضد السياسة الفرنسية اللاعادلة، إذ فرضت فرنسا التجنيد لمدة 3 سنوات على الجزائريين بينما هي لمدة سنتين فقط على الفرنسيين. ومظاهرة 8 ماي 1945، وغيرها من ردود الفعل[2]. وقد بلغ عدد الجزائريين المجندين في الحرب العالمية الأولى كالآتي[3]:

الجند 177000

العمال 75000

القتلى 56000

الجرحى 82000

لكن مصادر أخرى تؤكد أن عدد المجندين الجزائريين بلغ 250000 محارب. وكان التجنيد فرض على العمال الجزائريين أيضا.

---

1 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مجلد. 2، ط. 5، دار الغرب الإسلامي 2005، ص. 108. وكان العلم بلون أخضر مع نجمة.

2 - بجانب هذه المظاهرات كانت الاحتجاجات المنددة بالسياسة الفرنسية، ورفع العرائض، وإرسال الوفود. وتأسيس الصحف، والفرار من الجيش الفرنسي، بجانب هذا كانت الهجومات العسكرية ضد المواقع الفرنسية. ففي خلال عام 1916 إلى عام 1918 حدث 9446 هجوم. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله. **المرجع السابق**، ص. 222.

والملفت للانتباه أن قادة الحركة الوطنية وهم فرحات عباس ومصالي الحاج، والبشير الإبراهيمي اجتمعوا قبيل مظاهرات 8 ماي في قصر الشلالة ووضعوا برنامجا طالبوا من خلاله بحقوق الجزائريين والقيام بمظاهرة احتفاء بالنصر. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **المرجع نفسه**، ص. 233.

3 - أبو القاسم سعد الله، **المرجع نفسه**. ص 199.

إذاً، كان موضوع التجنيد الشغل الشاغل لرجال الحركة الوطنية، ومنهم عمر راسم الذي ثار ضد هذه السياسة. وكذلك الشيخ محمد الخضر حسين المعادي لسياسة فرنسا، ولذي دعا المجندين الجزائريين إلى الهروب من الجيش الفرنسي.

وتعد ثورتا 1901، 1906، ومظاهرات 1910 هي محطة إقلاع للحركة الوطنية. إذ إن ثورة عام 1901 فتحت نقاشا واسعا داخل فرنسا حول هل تكون الجزائر امتدادا لفرنسا أو مملكة عربية، أو مستعمرة فرنسية أو أهلية فرنسية ذات جنسية واحدة، واستقرت السياسة الفرنسية على إنشاء المحاكم الرادعة بجانب قانون الأهالي الساري المفعول، فصادر للحاكم العام كامل السلطات، وحصل على صلاحيات كاملة نفذ بها أحكاما ضد جزائريين بالنفي والسجن من دون أن يكون لهم حق الاستئناف، ولمواجهة مثل هذه الثورة طبقت فرنسا المحاكم الرادعة. ونتج عن هذه السياسة أحكام قضائية بلغت 51519 حكم ما بين سنتي 1905-1907[1]. أي بمعدل 17176 حكم رادع في السنة، و 142 حكم في الشهر، بما يقارب 5 أحكام في اليوم.

وفي سنة 1906 كانت ثورة عين بسام، في وقت اشتد فيه التنافس بين فرنسا وألمانيا، وفي وقت انعقد فيه مؤتمر الجسيرة عام 1906، لهذا شرعت فرنسا في تطبيق قرار فصل الدين عن الدولة الذي قررته عام 1905 وحاولت تطبيقه في الجزائر بداية من عام 1907. وكان هذا القرار انطبق على اليهود والمسيحيين من دون المسلمين الذين ظلوا تحت الرقابة وفي قيود.

وطبق جونار الحاكم العام سياسة قمعية تعرف بمنشور جونار، منها الإجراء الذي بموجبه منع الجزائريين عام 1908 من الحج، وفي هذه السنة حدثت الثورة التركية التي كان لها صدى واسع في نفوس الجزائريين.

---

1 - سعد الله، الحركة الوطنية، مجلد. 2، ط. 5، دار الغرب الإسلامي 2005، ص. 107.

وكانت السياسة الاستعمارية مستمرة في ممارسة القمع والمصادرة في حق الجزائريين؛ بتطبيق قوانين جائرة مثل قوانين مصادرة الأراضي عام 1873، 1887، وغيرها من القوانين.

وحاول بعض المعتدلين الفرنسيين تطبيق سياسة لينة تجاه الجزائريين أمثال جان جوراس الاشتراكي الذي اقترح عام 1889 "تحرير" الجزائريين بمنحهم الجنسية الفرنسية. وكذلك بعض المفكرين وعلى رأسهم شارل جيد الذي طالب بتأسيس الاتحاد الفرنسي-الأهلي أي الأمة الجزائرية التي تتشكل من جزائريين وفرنسيين في جنسية واحدة بداية من عام 1913.

ولكنه في الوقت نفسه حصل الكولون عام 1900 على الاستقلال المالي الذاتي؛ وصارت في نظرهم الجزائر الفرنسية مدنيةً.

وكان الكولون يحارب الصحف الإصلاحية مثل الإقدام، وصحيفتي ذو الفقار متهما أياها بأنها شيوعية تسمم الرأي العام وتحرض ضد فرنسا. وكان الكولون ضد:

- الراديكاليين الفرنسيين والعسكريين؛
- الشيوعيين؛
- مبادئ الجامعة الإسلامية؛
- الحركة الوطنية الإصلاحية والثورية، متهمين أياهم بالتعصب وبانتماء الأمير خالد إلى الشيوعية وإلى ثورة الأمير عبد المالك، وإلى ألمانيا لضرب فرنسا، وبتشجيع الجامعة الإسلامية؛
- مبادئ ويلسن الديمقراطية.

إذن أطراف الصراع في الجزائر هم:

- فرنسا؛
- الكولون؛

- الشيوعية
- تركيا وألمانيا؛
- الجامعة الإسلامية؛
- بريطانيا؛
- الحركة الوطنية الجزائرية.

وكان بعض رجال الحركة الوطنية الجزائرية قد رفعوا إلى لجنة جول فيري عام 1892 مطالب منها خفض الضرائب، والحصول على التمثيل النيابي الجزائري، واستعادة مكانة القضاء الإسلامي. واستغلت السلطة الفرنسية من جهة أخرى كسب العائلات الجزائرية الكبيرة صاحبة الأطيان الكثيرة، وصاحبة الخيم الكبيرة، وكان لها ذلك من بعض العائلات التي ألحقت ضررا بالحركة الوطنية.

وفي العموم فقد اتسمت نهاية القرن 19 بسيطرة الكولون في الجزائر اقتصاديا واجتماعيا، وإداريا، وكان التمثيل النيابي الجزائري ضعيفا من حيث العدد ومن حيث التأثير، وهذا ما يفسر الدافع لمطلب الحركة الوطنية، ومنها مطلب عمر راسم وغيره الداعي إلى ضرورة التمثيل الجزائري الواسع.

مع التأكيد على أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت تتلقى دعما محدودا من تركيا، وألمانيا، وبريطانيا، والحركات العربية الأخرى. وكان هذا التأييد نكاية بفرنسا العدو ليس عن مبدإ.

مثلما هو المميز خلال هذه الفترة بما عرف بالأزمة اليهودية التي تفاقمت بداية من عام 1895 خاصة في قسنطينة ووهران؛ لأن اليهود كانوا يسيطرون على عالم المال والأعمال في الجزائر فثار ضدهم المستوطنون الذين كانوا يمارسون الفلاحة والإدارة أكثر من ممارستهم إدارة المال والأعمال. مثلما ثار ضدهم الاشتراكيون والشيوعيون خاصة في مؤتمرهم الثالث الذي انعقد في الجزائر عام 1895.

يعني هذا أن أكثر من طرف، فرنسي، أو في فلك فرنسا من داخل الجزائر ومن خارجها أكثر من طرف كان يتصارع من ن أجل السيطرة على الجزائر، ومنهم اليهود والمستوطنون، والاشتراكيون، وفي ظل هذا الصراع كان الطرف الجزائري الوطني هو الآخر في صراع ضد هذه الأطراف.

نتجية هذا الوضع المزرء عرف المجتمع الجزائري تدهورا في حياته اليومية بكثرة الأمراض، وضنك المجاعة، إلى درجة أن أقامت السلطة الفرنسية جمعيات خيرية بلغت عام 1910 حوالي 208 جمعية لمساعدة الأهالي والفلاحين والخماسين للحصول على الرغيف اليومي. وهذا الوضع دفع كثيرا من رجال الحركة الوطنية ومنهم عمر راسم إلى الثورة على فرنسا، وعلى من سار في ركابها. التي كانت متحيزة إلى المعمرين على حساب الجزائريين. ونذكر من هذا التحيز فيما كانت تمنحه من قروض خلال الفترة الممتدة من عام 1902 إلى عام 1908 بالفرنك وهو على الوجه الآتي:

- للكولون: 539288
- للجزائريين: 264973

مع العلم أن عدد الجزائريين بداية القرن 20 كان حوالي 5 ملايين وعدد الأوروبيين لم يتجاوز نصف مليون[1].

ونتج عن هذا الوضع أن هاجر كثير من الجزائريين إلى المغرب الأقصى وإلى تونس وليبيا، ومصر، وسوريا، وفلسطين ولبنان والحجاز والأناضول وفرنسا، وإلى جهات أخرى.

ومن دون أن يفوتنا ذكر أمرين لهما من التأثير الكبير في الحركة الوطنية الجزائرية، مثلما كان للحركة الوطنية تأثير فيهما، وهما الجامعة الإسلامية والتيار الفكري المتمثل في الشيوعية العالمية.

---

1 - سعد الله، **المرجع نفسه**، ص. 142.

ففيما يتعلق بالجامعة الإسلامية نقول إن كثيرا من الجزائريين ومنهم عمر راسم كانوا متأثرين بأفكار الجامعة الإسلامية، لهذا كان الجزائريون المتواجدون في المهجر هم الذين أثروا في الجامعة الإسلامية أكثر مما أثروا في الحركة الوطنية في الجزائر، مثلما كان أثر الجزائريين المهاجرين في فرنسا محدودا في الحركة الوطنية داخل الجزائر، بينما كان الجزائريون في الجزائر هم الذين رفعوا راية الحركة الوطنية بقوة، ومنهم عمر راسم. ولكنه بعد الحرب الأولى أثر المهاجرون في الحركة الوطنية بشكل مباشر أيضا.

وقد ردت فرنسا على نشاط الجامعة الإسلامية بدعاية مفادها أن فرنسا أمة إسلامية، وأصدرت في هذا الشأن عام 1913 صحيفة باسم "فرنسا الإسلامية". وعملت من جهة أخرى وبتشجيع من بعض المفكرين الفرنسيين إلى تشجيع النزعة البربرية.

وكان جانب من الدعاية التي قامت بها الجامعة الإسلامية تسيره ألمانيا ضد فرنسا، بواسطة الأمير علي باشا بن الأمير عبد القادر، الذي كان يتولى منصبا هاما كنائب لرئيس مجلس البرلمان العثماني. وأيضا ساهمت ألمانيا بجانب تركيا في تأسيس "لجنة استقلال الجزائر وتونس" بإسناد رئاستها إلى المناضل صالح الشريف التونسي. وقد ردت فرنسا على نشاط الدعاية هذا بالتقرب إلى إخوة الأمير علي بتعيين الأمير عبد المالك في طانجة وباستقبال الأمير عمر في باريس.

ونتج عن السياسة الفرنسية، وعن نشاط الجامعة الإسلامية أن حدثت هجرات جزائرية إلى المشرق خاصة عام 1911.

وبجانب عمر راسم كان مصلحون جزائريون ثائرين نذكر منهم ابن الموهوب الذي نادى بالتقدم، وكشف أسباب تأخر الجزائر، وقد ألقى محاضرة في نادي صالح باي بقسنطينة عام 1909، بين فيها تدهور الأحوال المادية والعقلية في الجزائر نتيجة عدم الاهتمام بالآداب، والتاريخ الإسلامي، إذ قال إن الجزائر كانت عضوا مريضا

في الجسم الفرنسي، فعلى الجزائريين أن يعالجوه[1]. وأن المعالجة في نظر هذا المصلح الثائر تكون بتعلم العلوم المتقدمة كالزراعة والكيمياء والرياضيات وغيرها. وكان ابن الموهوب من دعاة الجامعة الإسلامية، ومن ناشطي الحركة الوطنية، فهو من الذين فهموا واقع الجزائر وسعوا لنهضتها، مثلما هو الأمر عند عمر راسم.

وعلى هذا الأساس يكون من خطاب الحركة الوطنية الدعوة إلى اليقظة والتعلم والتضامن، ومنافسة المعمرين بالحصول على الحقوق السياسية والاجتماعية، ويكون عمر راسم، وكذلك ابن الموهوب، وغيرهما ممن التزموا هذا الخطاب، فتمكن ابن الموهوب وعمر راسم ومن سار على منوالهما من كسب صفوف العلماء، وبعض النواب والطلبة.

أما الأمر الثاني والمتمثل في رجال الشيوعية فالملاحظ أنه بداية من عام 1919 اهتم البولشفيون بقضايا المسلمين، ومنهم الجزائريون. وتبين ذلك في المؤتمر الأول عام 1919. وكذلك في المؤتمر الثاني عام 1920 الذي دعا فيه المؤتمرون إلى مساعدة حركات التحرر بالوقوف ضد نشاط الجامعة الإسلامية، والإمبريالية. وكان لينين يقول إن الجزائر قلعة الثورة الشيوعية، وقد حاول أتباع لينين أن يجعلوا من الجزائر ميدان نشاطهم. لكن المؤتمر الثالث عام 1921 لم يناقش قضية الجزائر. لكنه في عام 1922 دعا الشيوعيون إلى تحرير الجزائر. وأثيرت قضية الجزائر بقوة في المؤتمر الرابع. نالت الجزائر اهتماما أكثر في المؤتمر الخامس. 1924. وفي المؤتمر السادس عام 1928 حضره مصالي الذي كان يمثل الحركة الثورية الوطنية في الجزائر، بدل الحركة الإصلاحية التي كان يقودها الأمير خالد[2].

---

1 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص. 151

2 - كان الأمير خالد من رواد الحركة الوطنية في الجزائر وفي الخارج أيضا، إذ كما يصرح عام 1922 إن حركتنا ليست دينية، ولكنها بالقوة حركة سياسية، لأن القضية هي قضية استقلال جميع الأقطار الإسلامية. وكان موضع إعجاب من أطراف جزائرية، ومنهم الدكتور ابن جلول زعيم الليبراليين الجزائريين، الذي أعجب بمطالب الأمير

وقد ركز هذا المؤتمر على دعم الحركات الثورية المفتوحة بدلا من التركيز على الحركات الوطنية المغلقة[1].

وكان الحزب الشيوعي الفرنسي هو الذي يمثل الجزائر في هذه المؤتمرات إلى غاية عام 1935 حيث ولد الحزب الشيوعي الجزائري.

لم يكن نشاط الحزب الشيوعي الفرنسي وطنيا وإنما كان بروليتاريا، لهذا لم يتمكن من كسب أهم الاتجاهات الجزائرية وهي:

- النخبة الجزائرية الموالية لفرنسا؛
- الإصلاحيين بقيادة الأمير خالد والعلماء؛
- نجم شمال إفريقيا الثوري الوطني؛
- الاشتراكيين ذوي التأثير المحدود.

وكانت كل من الحركة الشيوعية العالمية والجامعة الإسلامية تحارب الاستعمار الأوروبي، لهذا حارب الفرنسيون، وبخاصة منهم الكولون هاتين الحركتين.

إذاً، نتيجة لهذه المواقف الشيوعية كان ميل بعض الجزائريين المناضلين، ومنهم عمر راسم إليهم على أساس عدالة، ومناصرة المظلوم، ومحاربة الاستعمار، وليس على أساس قناعة أيديولوجية.

والسؤال الذي يمكن طرحه هو ما هو خطاب الطرف الوطني الجزائري؟

خالد وهي:

- احترام الحضارة الإسلامية؛
- محاربة التمييز العنصري؛
- المطالبة بالمساواة في الحقوق السياسية للجزائريين؛
- تطوير المجتمع الجزائري بواسطة النخبة الجزائرية لا الفرنسية.

1 - لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه. ص-ص. 315-321

إن المطلب الجزائري لم يكن واحدا موحدا منذ بداية الاحتلال إلى ثورة الاستقلال، إذ إن هناك من كان يطالب باستبقاء الهوية الجزائرية في إطار الملة المحمدية، والخلافة الإسلامية؛ مع تبعية اقتصادية لفرنسا، مثلما هو الحال في وطنية حمدان بن عثمان خوجة الجزائري[1]. وهناك من طالب أن تكون الجزائر في ركب الحضارة الأوروبية، أي بالإدماج، ولكن في إطار الملة المحمدية، بأحوالها الشخصية، وهو الأمر الذي نادى به كل من أحمد بوضربة الجزائري، والحسن بن عزوز الجزائري[2]. وهناك من جاهد من أجل الجزائر والإسلام، بعيدا عن التبعية للدولتين العثمانية والفرنسية، مثلما هو الأمر الذي سعى إليه لأمير عبد القادر وأنصاره. وهناك من عمل على تكريس الانفصالية العرقية، مثلما هو الحال في خطاب أصحاب النزعة البربرية أمثال عمار بن سعيد بوليفة.

ويمكن إجمال القول بحسب بعض المؤرخين المحترفين أمثال أبو القاسم سعد الله في أنه مع بداية العشرينيات من القرن العشرين كان خطاب الحركة الوطنية متعدد الاتجاهات، هي في المختصر الآتي:

1- اتجاه محافظ متذبذب، ويتشكل ممن خدموا فرنسا (أسر إقطاعية، وبني وي وي)[3]؛

2- اتجاه معتدل وهو القسم الأول من جماعة النخبة[1] الاندماجيين بعد عام 1919؛

---

1 - لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية**، دار البعث- قسنطينة. 1987

2 - لمزيد من المعلومات عن أحمد بوضربة يراجع كتابنا: **دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية**، في صفحات متفرقة من 92 إلى 171. وعن الحسن بن عزوز يراجع كتابنا: **من تاريخ الجزائر الحديث**، ط. 2، دار الهدى- عين مليلة 2004، بدءا بصفحة 157.

3 - لم يكن المحافظون منضبطين في تنظيم محدد الأهداف، وكانوا متفقين على ضرورة الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية الوطنية، العربية الإسلامية وكانوا من مرابطين وأعيان وعلماء .

3- اتجاه معارض وهو القسم الثاني من جماعة النخبة، الذي يوصف بالحزب الوطني؛ الإسلامي، أو بحزب الإصلاح الرافض للاندماج؛

4- اتجاه ثوري متأثر بالاتجاه الليبرالي والاشتراكي؛

5- اتجاه عربي إسلامي محافظ، بقيادة العلماء الفقهاء[2].

ويبقى هذا التقسيم لا يلامس الحقيقة التاريخية كلها، لأنه مثلما قلنا في موطن آخر[3] إن هذا التقسيم قد تحدد بالمواقف السياسية السائدة في الجزائر، ولم يتحدد بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي أحدث اختلافا فكريا أدى إلى التعدد في الخطاب داخل الصف الجزائري، وهذا بوجود:

- إصلاحيين، بقيادة الأمير خالد، وعمر راسم؛
- وطنيين بروليتاريين ثوريين، بقيادة نجم شمال إفريقيا؛
- وطنيين ثوريين، بقيادة حزب الشعب؛
- وطنيين إصلاحيين دينيين، بقيادة محمد بن زكور، ومحمد بوقندورة، وعبد الحميد بن سماية، وعبد القادر المجاوي، ثم بقيادة جمعية العلماء المسلمين؛

1- إن المقصود بالنخبة هنا أغلب الموظفين الإداريين وأغلب أصحاب المهن الحرة والصحافيين الذين تلقوا لغة وثقافة الغرب، وعملوا على إدماج المجتمع الجزائري في هذه الثقافة. وكان كثير من أعضاء النخبة يرون فرنسا اثنتين، فرنسا المدينة الديمقراطية، وفرنسا الاستبدادية الكولونيالية. وكانوا معارضين لأفكار الجامعة الإسلامية.

ومع ذلك يشهد لأعضاء هذه النخبة ما قاموا به من بنشاط لصالح الليبيين ضد إيطاليا، ومن غير المستبعد أن يكون نشاطهم هذا بدافع من الفرنسيين المعديين لإيطاليا. في الوقت الذي لم يكن موقف هذه النخبة مسايرا لموقف النخبة التونسية برئاسة علي باش حانبة الذي أسس عام 1916 لجنة تحرير المغرب العربي.

وكان لرجال النخبة الجزائرية برنامج واضح تمثل في المذكرة التي قدموها عام 1912 للحكومة الفرنسية. للمزيد يراجع: أبو القاسم سعد الله، **المرجع نفسه**، ص. 163

2 - لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الهدى 2007.

3 - **الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية**.

- اندماجيين انفصاليين، ذوي نزعة عرقية انفصالية، بقيادة عمار بن سعيد بوليفة ورابح زناتي[1]؛

- اندماجيين لائكيين، بقيادة بني وي وي، والحزب الشيوعي.

وعلى هذا الأساس فمن الصعوبة بمكان تحديد مفهوم الحركة الوطنية، وتصنيفها في خطاب واحد موحد.

ومن جانب آخر فقد ساهمت في تنشيط الحركة الوطنية، الجمعياتُ والنوادي مثل، الجمعية الراشيدية، التي تأسست عام 1902، والجمعية التوفيقية عام 1908، وجمعية المجنسين عام 1909، وجمعية الصادقية عام 1910، وجمعية الانطلاقة الإسلامية عام 1911، وجمعية الأخوية (1912؟). ومثل نادي صالح باي الذي تأسس عام 1907، ونادي الشبان الجزائريين عام 1911، ونادي الشبيبة الإسلامية العنابية عام 1911، والنادي الإسلامي الوهراني عام 1914، ونادي الإقبال عام 1919، ونادي الارتقاء عام 1920.

كان نشاط هذه الجمعيات والنوادي عاملا مساعدا في تطور الحركة الوطنية، بجانب العوامل الأخرى التي نذكر منها:

- اضطهاد الاستيطان ضد الجزائريين؛ بفرض الضرائب، والتجنيد، والتجنيس، وعدم المساواة في التمثيل النيابي؛

- فشل المقاومة الجزائرية عسكريا؛ وهيمنة الجيش باسم فرنسا، والمعمرين باسم أوروبا؛

- تأثيرات الجامعة الإسلامية في الفكر النضالي الجزائري؛

---

1 - هو خريج المدرسة الفرنسية، ومن دعاة الاندماج، أسس عام 1922 مجلة "صوت المستضعفين" (La voix des humbles)، وأسس عام 1929 أسس "صوت الأهلي" (La voix d'indigène) وكان شعارها "جريدة الاتحاد الفرنسي-الإسلامي". وكان من عناوين افتتاحيتها "يجب أن تصبح الجزائر فرنسية".

- نشاط أعداء فرنسا مثل ألمانيا، والبلشفية، واتفاق أطراف جزائرية معهما؛

- شعارات مبادئ ويلسن المؤيدة للشعوب الضعيفة؛

- مواقف فرنسية داعية إلى تشكيل "أمة" تضم كل الفئات الجزائرية والأوروبية في جنسية واحدة متساوية الحقوق والواجبات؛

- الثورات الجزائرية: عين التركي عام 1901، وعين بسام 1906، وبني شقران عام 1915، والأوراس عام 1916، والجنوب الجزائري.

وقد ساهم قادة الجامعة الإسلامية[1] في إثراء فكر رجال الحركة الوطنية بشكل مباشر، خاصة حين زار محمد عبده الجزائر عام 1903[2] قبل وفاته بعامين، وخاصة في فكر عمر راسم، الذي أشاد به وجعله مديرا دينيا لجريدته ذو الفقار، وقال في افتتاحية جريدته: "ذو الفقار جريدة عبدويه إصلاحيّة، وإنها لا تخرج عن الطريقة الّتي خطّها لها رجال الإصلاح المخلصون".

رابعا- خطاب عمر راسم في الحركة الوطنية:

لم يكتف عمر راسم باحتراف الرسم والزخرفة فقط بل احترف الصحافة، تأسيسا، وكتابة. فمن الصحف التي أسسها كانت صحيفة الجزائر 1908، التي يمكن اعتبارها أول صحيفة جزائرية صدرت باللغة العربية كاملة[3]، وصحيفة ذو الفقار عام

---

1 -لمزيد من المعلومات يراجع: **الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية**. بدءا بصفحة 69

2 - كان محمد عبده (1849- 1905) يتزعم في الجامعة الإسلامية الرأي الداعي إلى جمع شمل الأمة الإسلامية، وتطويرها بالعلم وبالتعليم والتهذيب. بجانب السلطان عبد الحميد الثاني الذي دعا إلى تأسيس جامعة إسلامية دستورية، قائمة على القرآن والشورى، والتصدي للأجنبي. وجمال الدين الأفغاني تزعم رأيا دعا من خلاله إلى إصلاح الأمة الإسلامية بالشورى. إذاً، فهدف السلطان العثماني كان سياسيا أكثر مما هو ديني، وهدف الأفغاني كان دينيا أكثر مما هو سياسي، وهدف محمد عبده كان كان علميا نهضويا بالدرجة الأولى.

3 - من الملاحظ أن الصحافة ظهرت في البلاد العربية، وفي الجزائر. ومن الصحف التي أسسها عرب، ومسلمون في بلدانهم وباللسان العربي كانت جريدة **الوقائع المصرية** عام 1828 بمصر، وتولى علي بن حمدان خوجة الجزائري الإشراف على المطبعة العربية التي أسسها محمد علي والي مصر. لمزيد ممن المعلومات يراجع: فيرو شارل،

1913، وهما صحيفتان إصلاحيتان. مثلما كتب في صحف عربية كثيرة منها مرشد الأمة عام 1906، والتقدم عام 1907، والمشير عام 1911[1]، وجريدة الحق الوهراني[2] عام 1912، والشهاب عام 1927. بالإضافة إلى جرائد أخرى مثل الحاضرة، والمرشد.

وبهذا النشاط الصحفي يمكن اعتبار عمر راسم ثالث عمدة في إصدار الصحافة العربية في الجزائر بمعية كل من عمر بن قدور، وأبو اليقظان.

ومن أهم الموضوعات التي تناولها عمر راسم كانت بعنوان: اليتم، ومسألة تجنيد الأهالي، وانحطاط التعليم واللغة، والإنسانية تتعذب، والمسألة الصهيونية، والموسيقى

الحوليات الليبية، ترجمة محمد عبد الكريم واقي، ج. 3، طرابلس (؟) ص-ص. 598-701. والمعروف أن أول مطبعة ظهرت في مصر كانت بالعربية والفرنسية على يد نابليون بونابرت في القاهرة. وسميت في البداية بالمطبعة الشرقية، ثم أخذت هذه المطبعة اسم المطبعة الأهلية. وقد جمع نابليون لمطبعته هذه حروفا عربية وفرنسية ويونانية وعبرية وسريانية وحروفا قبطية، وأصدرت هذه المطبعة مجلة "العشرية المصرية" (LA DECADE EGYPTIENNE) بالفرنسية في شهر أكتوبر 1789. هذا في مصر أما في بلدان أخرى فكانت الصحف العربية **المرشد العثماني** عام 1831 في تركيا، وجريدة مرآة الأحوال عام 1855 بالآستانة بتركيا، التي أسسها رزق الله حسون الحلبي. ثم **حديقة الأخبار** التي أسسها خليل الخوري عام 1858 في بيروت. والرائد التونسي الذي تولى رئاسة تحريرها عام 1860 المستشرق كرتلي أو رُشَيد الدحداح (1814-1889). أما في الجزائر فكانت بالفرنسية بداية من "**بريد الجزائر**" (Estafette d'Alger) أو (Estafette de Sidi Fregj) عام 1830. ثم تتالت الصحف بالمئات. وصدرت صحف جزائرية كانت بدايتها في عنابة عام 1894 وباللغتين العربية والفرنسية، إلى أن أسس عمر راسم صحيفته عام 1908 باللغة العربية كاملة. وقد ذكر أبو القاسم سعد الله أن صحفا أخرى ظهرت باللغة العربية، مثل جريدة الإحياء التي صدرت عام 1906. ثم ظهرت بعد هذا التاريخ صحف عربية وطنية أخرى، وكان من أهدافها:

-مناهضة الاستعمار الفرنسي؛

- إبراز البعد الحضاري العربي الإسلامي للشعب الجزائري.

لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **من الملتقيات التاريخية**، ط. 2، دار الهدى 2007، موضوع "الدعاية في سياسة الاحتلال الفرنسي للجزائر".

2 - من المعلوم أن أول جريدة صدرت في عنابة عام 1894 بعنوان **الحق**، وجريدة في بسكرة عام 1926 تسمى **الحق** كذلك.

الأندلسية في الجزائر، وغيرها. بجانب عمل مخطوط ذي العنوان: تراجم أعلام الجزائر[1].

وكان عمر راسم يوقع بأسماء مستعارة تقيةً مثل: محفوظ، وكامل، وأبو منصور الصنهاجي، والبائس اليائس الثائر على العصر وأهله عمير راسم، والواثق الحي الدائم عبده عمر راسم..

ونتيجة لمواقفه المناهضة للاستعمار الأوروبي، ولأذنابها من أبناء الجزائر، ولمناهضته للصهيونية تمكنت السلطة الفرنسية من الحكم عليه بالأشغال الشاقّة يوم 13 أوت 1915[2]. وفي سنة 1921 أعفي عنه.

وقد أثرت فيه سنوات السجن إلى درجة كبيرة. ويفهم هذا من رسالته إلى أخيه سنة 1919 التي قال فيها إنّي الآن أعيش الفترة الأكثر صعوبة في حياتي، إنّ اللحظة الّتي أستطيع فيها التنفّس لم تحن بعد، فهل أستطيع تحمّل هذه الوضعيّة الّتي لا تُطاق؟ هل أستطيع العيش في هذه المحنة القاسية؟ لمن أتوجّه؟ لمن أشكو؟ حتّى البكاء الّذي سيخفّف عنّي لا أستطيعه لأنّ ذلك يجب أن يكون بعد إذن"[3].

---

1 - بحسب ما ذكره فضيلة الأستاذ الدكتور سعد الله أبو القاسم، أن محمد علي دبوز قد وظف المعلومات الواردة في هذا المخطوط في كتابه مُحاضرات في تاريخ الجزائر، لمزيد من المعلومات يراجع: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 3، ص. 72. وجزء 7، ص. 441. ومهما يكن من أمر فالظاهر أن بهذا المخطوط تراجم حياة ذات قيمة لعلماء جزائريين أمثال: محمد بن مصطفى بالخوجة، وحمدان خوجة. ومن غير المستبعد أن يكون عمر راسم معجبا بحمدان بن عثمان خوجة الذي يعد من الرواد الأوائل للإصلاح الاجتماعي السياسي في البلاد العربية الإسلامية. لمعرفة شيء عن حمدان خوجة يراجع كتابنا: **دور حمدان بن عثمان خوجة في تطور القضية الجزائرية** (1830-1848)، دار البعث، قسنطينة 1987.

2 - اتهمته فرنسا بالخيانة حين تمكنت المخابرات البريطانية من تسليم وثيقة إلى المخابرات الفرنسية تحمل توقيعات جزائريين كتبت بخط عمر راسم، دعوا فيها إلى محاربة فرنسا، ونصرة تركيا، الذي يعني نصرة ألمانيا.

3 - محمد ناصر، **عمر راسم المصلح الثائر**، وزارة الثقافة، الجزائر 1984، ص. 26.

وبهذا النشاط تكون قد ظهرت في الجزائر صحافة وطنية عربية، كان من قادتها عمر راسم، عالجت موضوعات كثيرة منها: موضوع التعليم، والمدارس العربية، وسياسة المستعمرين، وجشع اليهود، والانحطاط الأخلاقي؛ وانتشار البدع. إذ قال عمر راسم: أجل، يجب أن نتعلم لكي نشعر بأننا ضعفاء.. يجب أن نتعلم لكي نعرف كيف نرفع أصواتنا في وجه الظلم.. يجب أن نتعلم لكي ندافع عن الحق، وتأبى نفوسنا الضيم، ولكي نطلب العدل والمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية، وفي النهاية لكي نموت أعزاء شرفاء ولا نعيش أذلاء جبناء.

جاء موقف عمر راسم في وقت تخلى فيه كثير من الجزائريين عن لغتهم العربية، وعن ثقافتهم، ومالوا إلى الفرنسية لغةً، وثقافة، وقانونا، لهذا ثار عمر راسم ضدهم، والتقى فكره بأفكار كثير من الوطنيين الإصلاحيين الذين دعوا إلى ضرورة تعلم وتعليم اللغة العربية، والحفاظ على التراث العربي الإسلامي رافعين الشعار "حياة الأمة بحياة لغتها". وبدافع هذا كان عمر راسم يكتب المقالات، ويحيي التراث، ويؤسس الصحف، وينشئ المدرسة، ويتفنن بالخط العربي، والزخرفة، من دون أن يبالي بما كان يتلقى من مصادرة في حقه، لأنه كان في هذا الوقت، وفي الجزائر كلُّ من يكتب مقالا ينصف فيه الجزائر والجزائريين، ويفضح فيه سياسة الفرنسيين، والمعمرين يعتبر في نظر هؤلاء مجرما يعاقب بأشدّ العقوبة.

ولم يكن نقد عمر راسم موجها ضد المستعمر الأوروبي فقط، بل كان نقده قويا لشعبه الجزائري، وللقادة العرب، وللصهيونية، إذ إن توفيق المدني قال عن عمر راسم إنه كان يقول: "لا يوجد عندنا شعب اطلاقاً، وإنّ ما تراه حولك ليس إلّا.. . كما يقولون بقر الله في زرع الله"[1]. وفيما يتعلق بموقفه من القادة العرب قال: "لا أريد

1 - أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر.

أن أكون مع أناس أعتقد أنهم أعداء الحقّ والإنسانية والوطن"[1]. وكان يعني فاروق[2]. ملك مصر الذي قال فيه: "لا ثقة لي به، إن مصر لا تسعد إلّا بعد ذهابه". وعن محمّد نجيب[3] قال: "والله هذا أسوأ من فاروق، لا ثقة لي به"[4]. ووجه نقدا لليهود بقوله: "لما سمعنا الإسلام يئنّ من طعنات أعدائه، والوطن ينادي بالويل والحسرة على أبنائه، أنشأنا هذه الجريدة لمحاربة أعداء الدّين، وكشف أسرار المنافقين، وإظهار مكائد اليهود والمشركين للنّاس أجمعين، وانتقاد أعمال المفسدين[5]. من هذا يتبين أن فكر عمر راسم كان مشدودا إلى فكر الجامعة الإسلامية. وبالتالي يكون خطابه قوميا دينيا إسلاميا.

وبحسب ما ذكره سعد الله أبو القاسم أنه "منذ 1908 أنشأ عمر راسم صحيفة... وقد وصفتها مجلة العالم الإسلامي بأنها جريدة بالعربية علمية أدبية وتربوية... وإنها جريدة دينية بالدرجة الأولى... تختار من الأخبار كل ما يهم المسلمين الجزائريين، أو الذين يزورون الجزائرمنهم[6].

ويفهم من شعار جريدة ذو الفقار: "جريدة عموميّة اشتراكيّة، انتقاديّة" إن ما يعنيه عمر راسم من اشتراكية، هو اشتراكيّة إسلاميّة، بالتمييز بينها وبين الاشتراكية العلمية. لأن الملاحظ في هذه الفترة أن كثيرا من الجزائريين تأثروا بنشاط التيارات الفكرية، والنظريات العلمية الأوروبية؛ من ذلك أن عمر راسم تأثر بالاشتراكية كعدالة اجتماعية، دون أن يتأثر بالشيوعية الأممية، كإيديولوجية مصادِرة، على خلاف البعض الآخر من الجزائريين الذين تأثروا بالشيوعية مثل عمار أوزقان.

---

1 - أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**.

2 - فاروق بن فؤاد (1920- 1965) تولى ملك مصر من سنة 1936 إلى عام 1952.

3 - محمّد نجيب (1901-1984)، وهو أول رئيس جمهورية لمصر بعد الثورة.

4 - أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**.

5 - **ذو الفقار**، عدد 1، الجزائر 1913.

6 - **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 5، ص. 285.

ويتفق فكر عمر راسم مع فكر كثير من السياسيين، ومنهم علي الحمامي[1] الذي كان يناضل في المغرب، وكذلك مع الأمير عبد المالك، وعبد الكريم الخطابي. ومن غير المستبعد أن يكون عمر راسم قد نسق جهوده مع المناضلين السياسيين في المغرب حين زارها. مثلما تأثر عمر راسم بأفكار من اتصل بهم خاصة في مصر حين زارها عام 1912، و 1932.

مما سبق يتبين أن مفهوم الخطاب في اللغة ليس هو نفسه في الفكر والتاريخ، فخطاب الحركة الوطنية كان متعدد الجوانب، ومنه كان خطاب عمر راسم مشدودا إلى خلفية تراثية إسلامية واعية. فهو لم يكن لائكيا، ولا علمانيا، ولا قوميجيا عربيا، ولم يكن ذا نزعة عرقية انفصالية، ولا اشتراكيا أمميا، ولم يكن طرقيا صوفيا. فهو من الذين أدركوا الواقع وحاولوا تغييره بنضاله، وبطرح أفكار إصلاحية سياسية، وفنية، ساهمت في إثراء الحضارة الإسلامية، والإنسانية.

وكفى الجزائر شرفا وفخرا أن يكون من أبنائها رجل مثل عمر راسم.

محمد راسم وهو شاب

من اليمين إلى اليسار كل من:
مالك بن نبي، الحاج حمو، عمر راسم، عبد الرحمن الجيلالي، البيركاميس

1 - شارك علي الحمامي مع مصالي الحاج في تنشيط النضال المغاربي في فرنسا.

محمد راسم